مطية البرغماتية في العالم الإسلامي

إن كل من ذلَّل ظهره لكي تمتطيه إيديولوجيا غربية أو شرقية - قديماً وحديثاً - في العالم الإسلامي نجده اليوم يذلل ظهره للبرغماتية العالمية بالعولمة.

فقد كتب «المؤرخ نورمان ستون، أن أوربا قبل سنة ١٩١٤م أنتجت فعلاً كل الأفكار التي تاجر بها القرن العشرون»[1]، وهي التي يحاول أن يتخلص منها القرن الواحد والعشرون ويتمسك بها العرب.

والذين ذللوا ظهرهم لحمل تلك الأفكار للعالم الإسلامي، كانوا طليعة الأدوات (الإنتلجنسية -

---

(١) بريام أبليارد، فهم الحاضر، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٩م، ص١٤٨.

obeikandl.com

الجاسوسية) الغربية التي دمرت دول هذا العالم، بدءاً من الدولة العثمانية إلى القاجارية فالهند وإفريقية؛ أي كل الإمبراطوريات الإسلامية التي شظاها الاستعمار الكولونيالي الغربي، بأفكاره التي تبعتها أساطيله في القرن العشرين، في حين أننا نحن الذين نتبع هذه الأساطيل اليوم في القرن الواحد والعشرين، بكل صنوف الخيانات القومية التي بدأت في الدولة العثمانية، من منطلق فكري خاطئ وناتج عن سوء تصور أن التقدم العلمي الغربي هو نتاج الفلسفات الغربية المعاصرة له في القرن التاسع عشر، فذهبت هذه الأفكار في تطبيقها (الأداتي) الخالي من أي خلفية علمية أو فلسفية محلية راقية، إلى ضرورة الانضواء، أو حتى على الأقل تشكيل فروع لهذه الفلسفات بأحزاب داخل الدولة العثمانية.

وهكذا لم تبدأ سلسلة هذه الخيانات غير المقصودة أولاً، إلا من أجل الاحتذاء بالغرب لكي نصير

متقدمين مثلهم، وبهذه السذاجة التي يجب أن يتبعها اتصالات تفرض سلوكاً أداتياً من الذين نطلب وصالهم حصلت «الترجمات المادية والوضعية في الفلسفة ووجدت أتباعاً.. مثل المادي (فردريك كارل كريستيان)، و(لدونيغ بوشنر)، وبخاصة (أوغست كومت) الذي أثر بصورة كبيرة في التفكير السياسي عند الشباب الأتراك، والذين يقلدون هؤلاء الشباب في العالم الإسلامي»[١].

علماً بأن نقاد كومت الغربيين قد أجمعوا على أن كتاباته عبارة عن خليط من اللغو والبصيرة النافذة في الوقت ذاته، ويظهر لغوه في الدين الوضعي الذي نشره عندما كان بخدمة (السانسيمونية) - نسبة إلى (سان سيمون) - والذي انتشر في الإمبراطورية العثمانية، وبه كلُّ هرطقات دين الإنسانية ولغوه، وقد ظهرت

(1) Bernard Lewis, what went wrong, weidenfeld and Nicolson, London 2002, p78

أول ما ظهرت نتائج هذا اللغو على (كومت) نفسه، إذ قضى بقية حياته بحالة عزلة جنونية، يكتب الرسائل لأتباعه لكي ينشروا دينه الوضعي هذا، بشكل يعبر عن جنونه، الذي شخصه أطباء ذلك العصر بـ(المانيا) (Mania)، وهو ما يعرف في علم النفس اليوم بـ(Bipolar disorder)، ويمكننا حصر مجموعة مؤلفاته بنحو ثمانية مؤلفات عدا رسائله الكثيرة إلى أتباعه[١].

وإذ يستدعي الانضواء، سواء لحزب أو لمفكر ما، أن يعامل المنضوي كأداة لنشر أفكار هذا الحزب أو ذاك المفكر، تبدأ لعبة المنفعة بينهما بالظهور، ويحاول من يطويك تحت جناحه أن يخفف من إبراز الجانب النفعي من هذه العلاقة بذرائع مختلفة، مثل النضال من أجل قيمة عليا تنفع المجتمع، أو ضرورة التضحية أو كليهما معاً، فيأخذ تبادل المنافع شكل

---

(1) Auguste Comte, Introduction to Positive Philosophy, Hackett Pub Com Inc, Cambridge, 1988, pxiii .

ألقاب تنحت على قدر ما يحب المغرر بهم من ألقاب، حتى إن بعض الكلمات السيئة تأخذ معنى جيداً، مثل الحمق والغضب والثورية باعتبارها أدوات بديلة عن المال الذي يدفع في نهاية المطاف، إذا خبا تأثير سحر هذه الكلمات.

هكذا كان الدرس الأول الذي تلقته هذه الأمة من الذرائعية، حتى قبل أن تسمع بكلمة برغماتية أو ذرائعية بعشرات السنين، درسُ الانضواء وممارسة الأداتية، دون شعور بها.

ومع طرح الأداتية مع تبدل الإيديولوجيات من (سانسيمونية) إلى (نازية) إلى (فاشية) إلى (اشتراكية – شيوعية)، وكثرة تقلب البنى الفكرية وتفتتها بين هذه التقلبات، ظهرت على المجتمعات الإسلامية كافة، ظواهر لم تكن فيها من قبل، لا يمكن إلا أن ترصدها عين خبيرة حيادية.

وصارت هذه الظواهر تشكل أمراً طبيعياً

obeikandi.com

قلما يستطيع من هو منخرط فيه استغرابه، وهي برأيي الأرضية التي تسمح اليوم للبرغماتية بالانتشار في العالم الإسلامي، مسوّغةً لكل خروج عن الأخلاق الإسلامية فيه، وبالوقت ذاته دلالة على الواقعية العملية العلمية، التي تجعل صاحبها يفخر بها، بدل أن تكون مجال خزي وضعة واستتار!!

وأهم أسباب هذه الأرضية التي تسمح اليوم بغزو العولمة البرغماتية لنا في كل مجال، هو: (أننا لم نصنع أي أداتية لا في الفكر ولا في الإنتاج)، بل تقبلناها حسب تحديدها الغربي في كل إنتاجاتنا الصناعية المتواضعة، ضمن إطارين رئيسين هما: إما الإطار (الرأسمالي) في بعض الدول الإسلامية العربية، أو الإطار (الاشتراكي) في أخرى، ولأننا لم نساهم في صنع أي من هذين الإطارين فقد استوردنا الأداتية مع كل نتاج تقني اشتريناه من الغرب، دون أي معرفة بالظروف العلمية أو الاجتماعية التي أنتجته،

obeikandl.com

وإن عرف بعضُنا بعض هذه الظروف أو ادعى معرفتها فعلى نطاق حزبي ضيق.

هكذا صارت أداتيتنا اقتباسية بحتة، تقبل مع كل منتج غربي خلفيته الفلسفية الأداتية، التي تفسح اليوم المجال لسوء فهم البرغماتية العالمية، بشكل أسوأ من كل تبنٍّ للمكيافيلية فيها بالغرب.

خذ مثلاً تبني دخول ساعات الوقت إلى كل مساجدنا في القرن السادس عشر[1]، تجدها قد أخلت بتنظيم الوقت الزوالي حسب حركة الشمس، حيث اضطر الناس إلى ضبط ساعاتهم على توقيت زوالي يسمى (عربياً)، ويختلف عن كون منتصف الليل في الساعة الثانية عشرة بجعله فجراً، لكن تغير الفصول أحدث إشكالية بذلك، حول بداية ساعات العمل؛ أمع الفجر كما كانت، أم في الساعات بين السابعة والعاشرة قبل الظهر؟!

(1) What went wrong, op. cit, p123.

obeikandi.com

وهي الإشكالية ذاتها التي ترتبت على إدخال الكهرباء، وزيادة السهر، مع الإخلال بأداء الصلوات من جهة، ومع متابعة تواتر الحياة اليومية من جهة أخرى، أحدهما على حساب الآخر.

أما مكبرات الصوت التي أدخلت مع الأذان في كل الأوقات في القرن العشرين، فلم يجرؤ أحد على لفت النظر إلى تلويثها الصوتي، الذي ما كان ليكون بصوت المؤذن الرخيم مع نسائم الفجر وضحى الوقت وخشوع الغروب.

فتبني الأدوات التي لم تستطع أداتيتنا صنعها في كل مجالات التقنية التي تجتاحنا، دفع بأداتيتنا إلى إنكار الوقت، وإنكار الأذان، وإنكار يقظة الفجر، وإنكار الساعة العربية في ضبط كل هذا؟ أي إنكار كل نظمنا الحياتية؟

وقد هيأت مجمل هذه الإنكارات التي كانت، وما زالت، تدخل فينا دون أن نصنعها، البنى

obeikandi.com

الإلحادية وزودتها بالبراهين العيانية على تناقض التراث مع الحداثة، فظهرت الأحزاب اليسارية بقوة في السياسة، مع عدم مراعاة تقاليدنا وأسسها الاجتماعية.

ولما كان الإنسان نتاج مجموعة ما يعمل، بقي مفهوم العمل ينتظر من يُنظِّرُ له من الخارج، وفي هذا الانتظار الاجتماعي الطويل بين مختلف الفلسفات التي توضح أو تتبنى (البراكسيس) بقينا نراوح بانتظار أداتيات جديدة تنقذنا مما نحن فيه.

وبانتظار أن نبدأ ونستمر في أي أداتية كانت أو أن نرفضها ونُوجد بديلاً، ترسخ «القمع في المجتمع العربي بفكرة النمط الواحد على غرار الحاكم الواحد والقيم الواحدة»[١] التي يفرضها خارج أصول عقائده بدعوى الحداثة، وصار عنوانُ التقدم، رفض الدين

(1) Ibid.

والقيم المرافقة له، لا إحداث أدوات جديدة ترد على تحديات الاستيراد.

وظن الجميع أن العلم وحده هو الحل، وتعلم التقنية هو التقدم، فظهرت تلك الشخصيات التسلطية بطغيانها الشرقي في المشافي وكل مكان تحكمه البيروقراطية، خاصة إذا كانت تحمل بدل لقب الباشا لقب دكتور(١)؟!

خضوع يشبه العبادة لغير الله للألقاب العلمية، دفع حتى الجيش إلى ترك واجباته من أجلها، وهكذا شاعت أداتية عدم الشعور بالمسؤولية، يقول (نوبوأكي) المستشرق الياباني: بالطبع يوجد خوف في اليابان من كثير من الأمور، لكن «لا يوجد عندنا الشخص الذي يهدد الناس ويخيفهم ليحقق منفعة

---

(١) وعلى هذا اللقب نشهد اليوم تهافت الاقتصاديين والحزبيين وحتى العسكريين، وكل محب للسلطة والتسلط، وفي آخر القائمة: الأكاديميين؟!

شخصية... كالاحترام الزائد الكاذب الذي يظهره الفلاحون لرجال السلطة»[١]، والقبول بأي إيديولوجية يطرحونها عليهم بشكل نفاق لا فعل وعمل فيه.

وإذ يفرغ الناس كرههم للإيديولوجيات التي تتنازعهم على الأملاك العامة للدولة، وجد هذا المستشرق أن البيت العربي نظيف، في حين أن «ظاهرة تخريب الممتلكات العامة - خارجه، لأن المواطن العربي يقرن بين الأملاك العامة والسلطة... فيدمر بانتقامه وطنه... تلك الظاهرة السلبية مختفية تماماً في المجتمع الياباني»[٢].

وتأخذ صور هذا الانتقام أشكالاً مختلفة «ففي متحف عربي، فجأة ظهر أمامي شخص وبلا مقدمات تكلم بالإنكليزية - فهو مثقف - يعرض أن أشتري

(١) نوبوأكي نوتوهار، العرب - وجهة نظر يابانية، منشورات الجمل، ألمانيا ٢٠٠٣م، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣.

obeikandl.com

سراً قطعاً أثرية، فلم أصدق أذني؟!»[١].

وبسبب «غياب الشعور بالمسؤولية العامة نسمع أخباراً محزنة عن أشكال الغش والتلاعب في التدريس والامتحانات»[٢]، وكل معارضة لهذه الأمور تصبح سلطة تنتظر دورها «فالمعارضة في البلاد العربية هي في حقيقتها سلطة ضد السلطة تنتظر دورها»[٣].

صراع تسلطي حول أي سلطة كانت، اجتماعية أو صحية أو حتى دينية، وأكثر من ذلك تسلط الذكر على الأنثى الذي ظنه المشاهدون الغربيون نتيجة ذكرية المجتمع، هو في الواقع تسلط متبادل، يبدأ بفصل الجنسين عند الطفولة من غير أي وجه حق قبل البلوغ، فتبدأ البنات بالشعور بأنهن مرغوبات أكثر مما هن في الواقع، فإذا استمر التشجيع الغنائي على الحب،

(١) المرجع السابق، ص٤١.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤.
(٣) المرجع السابق، ص٥١.

obeikandi.com

سادت الأنثى على الذكر وأخضعته، وبعبارة أخرى: إن المجتمع التسلطي الطغياني يفرز علاقات طاغية بين الجنسين تميل بكفتها إلى أقواهم إرادة، ذكراً كان أم أنثى.

وكل هذه النقائص التي يمكن للمراقب ملاحظتها بسهولة، تحول المجتمع إلى عصائب نفعية تتكتل بعضها مع بعض من أجل أي مكسب، مهما كان بعيداً عن الأخلاق والدين، ومثل هذا المجتمع يقع فريسة سهلة لكل شعار وافد مع تقنية جديدة.

وشعار التقنية اليوم: «برغماتي عالمي كوغنيتاري»، تماماً كما كانت شعارات الأمس القريب إلحادية تقدمية (بلوريتارية).

ولما كانت الرشى الكبرى قادرة على كسر الأخلاق الإسلامية والدينية العربية، وبعد أن فقدت الحكومات دورها التوجيهي، بسبب سرعة التحولات الاجتماعية الكوغنيتارية اليوم، وصارت مناطق كاملة تحمي

obeikandl.com

الفساد المالي، كغسيل الأموال وتجارة المخدرات، مثل هونغ كونغ وجبل طارق وقبرص[١]، أراد كل الناس أن يلحقوا بهذه الثروات السريعة في البورصات العالمية والمصارف الربوية، التي تغسل الأموال، فصار الكثير من الرعاع يلبسون أحذية (بيرغاردان) ويركبون (المرسيدسات) الفارهة، ولأنهم كرعاع الأمس الذين اهتدوا على كلمة تقدمية، فهم يهتدون على كلمة (Business) والبرغماتية دون فهم مضامين أي منهما.

إن فخ العولمة اليوم كفخ شعارات الأمس؛ أداة من أدوات تغلب الفردية على المجتمع، من خلال التكتلات العصبية الصغيرة فيه، في مجتمع دولي مؤسساتي لا يهمه سوى أداتية المردودات التي تمكن من مزيد من السيطرة، لذلك لا تهتم هذه المؤسسات

(١) هانز بيتر مارتن، فخ العولمة، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس / آب ٢٠٠٣م، ص٣٣٣.

obeikandl.com

الكبرى بوطنها أو بدولها، فلم تعد رحى الحرب تدور بين الدول، بل حولتها البرغماتية إلى أن تدور في الدول الضعيفة نفسها، وعلى سبيل المثال: لقي سبعة عشر ألف فرد حتفهم بعد عام من انتهاء سياسة التمييز العنصري، في سياق ما دار من صراعات - قبلية داخلية - في جنوب إفريقيا، أي إن الخسائر في الأرواح فاقت ما كبدته الحرب من أجل الخلاص من التمييز العنصري التي استمرت ١٦ سنة[(١)].

كذلك يفقد الناس اليوم حياتهم في العراق أضعافاً مضاعفة مما فقدوا في أثناء الحكم السابق، وأثناء عمليات احتلالهم من أمريكا وبريطانيا، والمجتمع البرغماتي الدولي يتجاهل ذلك على نحو خطير، خطر الإبادات الجماعية المتفرقة التي تحصل يومياً في (باكستان) و(أفغانستان)، فضلاً عن الموت الجماعي بالإيدز في إفريقيا؟

(١) المرجع السابق، ص٦٩.

يقول هانس بيتر مارتن، مع هارلد شومان: «يعلق (كابلان) في هذا السياق قائلاً: في هذا الجزء من العالم سيكون الإسلام، بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية، فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح»[١].

(١) المرجع السابق، ص٧٠.

obeikandl.com

مخطط الأفكار الأساسية حول صلة البرغماتية بالتيارات الفلسفية العالمية:

الأنانية الربحية بلا أداتية إنتاج	الميكيافيلية	الأداتية المنتجة	المعيارية الأداتية المنتجة
الشرق الأوسط يتقنها!!	يعرفها الشرق الأوسط بوصفها أنانية فردية وعصبية طائفية.	لا يعرفها الشرق الأوسط.	يعرف الشرق الأوسط القيم الدينية منها، ونادراً ما يطبقها.
ترفضها المجتمعات الغربية ويحاربها القانون عندهم، ولا تقبلها النفعية.	تتحاذها النفعية والبرغماتية.	تستغلها النفعية والبرغماتية معاً.	لا حاجة للنفعية بها.
هي عند التجريبية مجرد خروج عن القانون.	تطرح التجريبية إشكالية الثقة على الميكيافيلية وتحاول تجنبها.	لا ترى التجريبية في الأداتية إلا نقصاً فلسفياً في الفهم بعد العمل "براكيس".	إما أن تخضع المعيارية الأداتية للتجربة أو ترفض من التجريبية!

obeikandi.com

البراغماتيسية	البراغماتية الحالية	العولمة البراغماتية الحالية	التبعية
لا يعرفها الشرق الأوسط.	لا يعرف الشرق الأوسط سوى تسويغاتها الربحية.	يحبذها كل الشرق الأوسط غير الأكاديمي كربحية فقط.	بوعي أو بلا وعي يقع كل الشرق الأوسط بما فيه إسرائيل فيها.
تعتبرها البرغماتية والنفعية طوباوية أكاديمية فقط.	استمرار للنفعية بصيغة أقوى.	تتمسك النفعية والربحية بكل صورهما بها.	تتبع النفعية البرغماتية بكل معنى الكلمة.
تعتبر التجريبية أن فلسفة (بيرس) ما زالت بحاجة إلى اكتشاف أكاديمي.	ترفض التجريبية فلسفة جيمس وديوي، للنقص المنطقي الحاد بهما.	تعتبر التجريبية العولمة من خساسات البرغماتية.	لم يستطع الفكر البرغماتي إخضاع التجريبية لقوة منطقها، الإنكليزي حتى الآن، ولهذا لم تدخل بريطانيا بأي سوق مشتركة.

obeikandi.com